

صفحة من كتاب

نيتشه والزواج

[صفحة مبداء إلى الأنسة المهذبة ١٠٠ م .]

الاستاذ زكريا إبراهيم

في ظلال الوحدة الفاسية ، ومن خلال الحياة العقلية الباردة ، أرسل نيتشه صيحته العالية : « إن ما نسمونه الحب ، ليس إلا سلسلة من الحماقات القصيرة المتتالية . أما الزواج فهو الحماقة المستقرة الكبرى التي تجيء خاتمة لتلك الحماقات » . وليس من عجب أن يعلن نيتشه مثل هذا الحكم على لسان نبيّه زرادشت : « فإن فيلسوفنا قد جهل المرأة ، ففاته بذلك معرفة جانب كبير من جوانب الحياة الإنسانية . وقد شهدت بذلك أخته فقالت : « إنني لم أشهد لديه أدنى أثر من آثار عاطفة المحبة . فكل اهتمامه كان منصرفاً إلى المسائل العقلية ، وأما ما عدا ذلك فلم يكن يلقى منه غير اهتمام سطحي . ويظهر أنه هو نفسه قد عانى كثيراً فيما بعد ، بسبب انعدام كل عاطفة من عواطف الحب لديه » . وإذا كان نيتشه قد جهل ذلك العلم الكبير الذي سماه سقراط باسم « الحب » ؛ فليس يدماً أن تجيء أحكامه التي أطلقها على المرأة ، أحكاماً فاسية لا تثبت فيها ولا هوادة . وهو نفسه قد فطن إلى أن جهله بالمرأة لا بد أن ينحرف به عن جادة الصواب ؛ فذكر على لسان تلك المرأة العجوز التي التي بها حكيمه زرادشت : « إن من القريب أن ينطق زرادشت بالحق في حديثه عن النساء ، مع أنه لا يعرف عنهن إلا الشيء القليل ! » ولكن ما هو هذا الحق الذي نطق به زرادشت في حديثه عن المرأة ؟ ألا فلنستمع إليه وهو يفضي إلى تلك المرأة العجوز بسر « المرأة » الذي كشفت له عنه الحياة : « كل ما في المرأة لغز ، وليس لهذا اللغز من حل إلا الولادة ... ليس الرجل للمرأة إلا وسيلة ، أما الناية فهي دائماً : الولد ... يجب أن يُنشأ الرجل للحرب والقتال ، أما المرأة فيجب تمهيداً للترويج عن المحاربين ، وكل ما عدا ذلك فهو حق وضلال » . أما المساواة

بين الرجل والمرأة فهي حديث خرافة ، لأن الجنسَيْن مختلفان ، ووظيفة كل منهما مختلفة كذلك عن وظيفة الآخر . ويصف نيتشه هذه المساواة بأنها مساواة مضادة للطبيعة Antiphysis ، لأن من المحال أن تنقلب المرأة رجلاً ، مهما أجهد الخياليون utopistes أنفسهم في توطيد أسباب ذلك الانقلاب . ومهمة الرجل في نظر نيتشه هي أن يقوم بجلائل الأعمال ، ويختلف ضروب الحرب والقتال ؛ أما المرأة فإنه ليس ثمة لديها شيء سوى الحب والطفل . وتبعاً لذلك فإن سعادة الرجل هي : « أنا أريد » ، وأما سعادة المرأة فهي : « هو يريد »

وقد حوّل نيتشه على « الزواج الحديث » — كدأبه في الحبل على كل ما هو محدث — ، وأخذ عليه أنه زواج يقوم على المواطف الصاخبة التي لا تدوم ، والأهواء الجامحة التي لا تستقر . فالزواج لا يمكن أن يقوم على الحب ، لأن الحب يعصف برجاحة الحكم ؛ وإنما الواجب أن يقوم على أساس من التدبر والحكمة . وإذا كان نظام الزواج ، في المجتمع الأوربي الحديث ، قد أخذ يزحف على ساقين ؛ فاذ ذلك إلا لأن زواج الحب قد أصبح يُنظر إليه اليوم نظرة ملؤها التسامح والتساهل . أما الزواج الكامل الذي تتحقق فيه حكمة هذا النظام على أحسن وجه ، فهو ذلك الذي تكون فيه الرابطة بين الزوجين ، رابطة قوية لا تنفصم عُراها ، بحيث لا يمكن أن تعصف بها الأهواء العابرة والنزوات العارضة . ومثل هذا الزواج لا يمكن أن يكون الأصل فيه هو الحب ، بل « غريزة النوع » أو « غريزة الامتلاك » (باعتبار أن الزوجة والأبناء بمثابة ممتلكات للزوج) ، أو « غريزة السيطرة » . ويؤكد نيتشه قيمة غريزة السيطرة في الزواج ؛ فيقول إن الأسرة أشبه ما تكون بملكة صغيرة تحتاج إلى أبناء وورثة لكي يدوم بقاءها ، ففي مجال الأسرة يستطيع الرجل أن « يباشر » إرادة القوة التي توجد لديه !

بيد أن نيتشه سرعان ما يمدل عن هذه النظرة ، لكي يقدم لنا عن الزواج صورة أخرى محببة جميلة ، يدخل فيها فكرته عن الإنسان الأعلى ؛ فيقول : « أنت شاب في مقتبل العمر ، وتتمنى أن تكون لك زوجة وأولاد ، ولكنني أسألك : هل أنت رجل يحق له أن يطمع في البنين ؟ هل أنت الرجل